

عهد

لصاحب العزة الأستاذ محمد محمود جلال بك

—•••••—

— ٢ —

يجب المرء حين يرجع لنفسه أثر صدمة أو مرض أو ذكرى فيجد فيها يشغل قلبه أو يله أنجاساً جديداً أو لونا آخر لا يكاد يختلف عما يشغله، بل هو في واقع الأمر منه في أساسه أو على صلة يصعب فصلهما. وكيف يتجلى هذا اللون أو يأخذ به ذلك الاتجاه ومنذ وقت قريب كان غامضاً أو كان مع الوجود عدماً.

ومرت أيام بور سعيد كمر الحاسد الشافي سراعاً، على حد قول المرحوم شوقي بك، وكلها ملأى بحديث الشاعر الشاب وما لوت من ذكراه محض المصادفة من لقاء الشاطيء الجميل ووفاء الأخ النبيل في بقاع لم تطأها قدمه. فبلده على بحريوسف، وذكره ينثر حياته النادرة على شاطئ البحر الأبيض المتوسط بينما قوت روحه في جنات النعم.

وفي خضم الذكريات وتداعي المآتي ذكرت حديثاً له منى أسيل يوم سائف في شرفة السلامك ببلدتي «القيس» وقد جاء يزورني في سنة ١٩١٧ أو سنة ١٩١٨ زيارة كأحداها بيننا تسجل إمتداد الوداد القديم الذي ربط الآباء كما ربط الأجداد من قبلهم.

ذكرت على شيء من النموض إشارته ذلك اليوم إلى اعتزام صديق من أهل بلده جمع قصائده في ديوان ... وأن الشيخ عبد الوهاب النجار قد يقدم له بكلمة. ومع توالي زيارتنا بين الأريف والقاهرة لم يذكر بعد ذلك شيئاً في هذا الشأن.

كان شديد الحياء جم التواضع. ولست أشك أن هذا الخلق هو الذي قام دون إعدائه إلى نسخة من الديوان، وكل ذلك مهد لما أعده تقصيراً مني في جانبه.

مضت سنوات على وفاته. وبعد قليل لحق به أخوه الأكبر

الذي قام على تربيته وتدير أمره. فأين السبيل إلى ذلك السكز؟ غير أن شعوراً بالثقة وإيماناً بأن الله مثيب النيات الصالحة بأعد بيتي وبين اليأس مما قصدت، وكلما لاحقتني صعاب أثناء تفكيري لا حقها لطف من الله بنور الأمل.

وكيف لا يكون ذلك وقد ذكرت فحملت عهداً محبباً إلى النفس أن تقى به منها كاف من مشقة. وهل يحس المرء مشقة في أداء عهد؟ ذكرني به صديق وفي عهد به إليه راحل وفي فالقصة كلها قصيدة وما أخرى الأدب بالوفاء!

ملك على خوف التقصير مشاعري وأرهف تجدد الذكرى عزيمتي فظلت أبحث مستهدياً كل من عرفت له صلة بالشاعر الراحل من قريب أو بعيد طيلة أعوام ثلاثة حتى كانت سنة ١٩٤٧ فأمدني صديق قريب في مفاجأة ممتعة بالنسخة الوحيدة الباقية من الديوان، وكانت تحتفظ بها شقيقته الكبرى كأغلى ترات يقتنى وما عرفت بمنابتي وحاجتي إليها حتى سارعت إلى قرينها عليه رحمة الله وهو الذي سلمها إلى صديقي ورفيق صباي أحد الأزهرى إذ كان زميلاً له في العمل.

حدثت ما وصلت إليه نعمة كبرى بقدر ما عددته جزاء وفاقاً للحفاظ والوفاء.

أما النسخة — على أنها تحفة العمر — فسقيمة الطباعة كثير فيها الخطأ، قد امتدت إليها يد الزمن فزقت من صفحاتها؛ ولكن هذا كله شحذ العزم على إبراز الشاعر وفضله ووضع شعره في المكان اللائق به. وليس أولى من الرسالة الغراء صحيفة الأدب الرفيع بنشر فضل كاد ينسى، وإحياء غصن ذوى في ريعه. وأهملت على سنة ١٩٤٨ بأمر اض وآلام انتضتني أسفاراً وتوزعت أيامي بين مختلف البلدان. ولعل أخذت الديوان مرة في رحلة آملا أن أرد به النفس إلى السكنة، أو أن أرد بأداء الواجب السكنية إلى النفس، ثم لم يرد الله، فانقضى عامان آخران قبل أن يحظى بهذا الأداء قلبي. وقد سلخت هذا الذي الطويل باعنا معقبات بين شواغل الحياة وبلاء الأيام وقلة المصادر إلى قرب إعاء، التمس